

# الموت

## عناصر الموضوع

٢٩٢	مفهوم الموت في القرآن
٢٩٣	الموت في الاستعمال القرآني
٢٩٤	الألفاظ ذات الصلة
٢٩٦	الاسلوب القرآني في عرض الموت
٣٠١	الناس والموت
٣١٠	الموت والآخرة

## مفهوم الموت في القرآن

### أولاً: المعنى اللغوي:

«الميْمُ وَالوَاءُ وَالتَّاءُ أَصْلٌ صَحِيحٌ، يَدْلِي عَلَى ذَهابِ الْقُوَّةِ مِنِ الشَّيْءِ»، مِنْهُ الْمَوْتُ: خَلَافُ الْحَيَاةِ»<sup>(١)</sup>.

والموت: ضد الحياة، مات يموت ويمات أيضاً فهو ميت، وميت مشدداً ومحففاً، وقومٌ موتى، وأمواتٌ، وميتون، مشدداً ومحففاً، ويستوي فيه المذكر والمؤنث<sup>(٢)</sup>.

والموت الذي مات، والميت والمات: الذي لم يمت بعد، يقال: لمن لم يمت إنه مائت عن قليلٍ، وميتٌ، ولا يقولون لمن مات: هذا مائتٌ، قيل: وهذا خطأً، وإنما ميت يصلح لما قد مات، ولما سيموت<sup>(٣)</sup>.

### ثانياً: المعنى الأصطلاحـي:

تعددت التعريفات للفظة الموت، وسنوردها إن شاء الله على النحو الآتي:  
الموت: صفة وجودية خلقت ضداً للحياة<sup>(٤)</sup>.

وقيل الموت: «انقطاع تعلق الروح بالبدن ومفارقته وحيولة بينهما، وتبدل حال، وانتقال من دار إلى دار»<sup>(٥)</sup>.

وقيل الموت: مفارقة الروح للجسد<sup>(٦)</sup>.

وقيل الموت: «حال خفاء وغيب، يضاف إلى ظاهر عالم يتاخر عنه، أو يتقدمه، تفقد فيه خواص ذلك الظهور»<sup>(٧)</sup>.

لا يخرج معنى الموت أصطلاحـاً عن المعنى اللغوي، كلامـاً يدلـان على خلاف الحياة.

(١) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥/٢٨٣.

(٢) انظر: مختار الصحاح، الرازبي ١/٣٠١.

(٣) انظر: لسان العرب، ابن منظور ٢/٩١، تاج العروس، الزبيدي ٥/١٠٠.

(٤) انظر: التعريفات، الجرجاني ص ٢٣٥.

(٥) التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة، القرطبي ص ١١٢.

(٦) انظر: المجمع، النووي ٥/١٠٥.

(٧) التوقيف على مهمات التعاريف، المناوي ص ٣١٨.

## الموت في الاستعمال القرآني

وردت مادة (موت) في القرآن الكريم (١٦٥) مرة<sup>(١)</sup>.

والصيغة التي وردت هي:

الصيغة	عدد المرات	المثال
الفعل الماضي	٢٤	﴿وَلَيْسَ مُتُّمٌ أَوْ قَيْلَقٌ﴾ [آل عمران: ١٥٨]
فعل المضارع	٣٤	﴿وَمَا نَدِرَى نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَهُوَتْ﴾ [لقمان: ٣٤]
فعل الأمر	٢	﴿فَقَالَ لَهُمْ اللَّهُ مُؤْمِنًا ثُمَّ أَخْيَهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٣]
المصدر	٥٠	﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَهُمْ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ﴾ [المؤمنون: ٩٩]
المصدر الميمي	٣	﴿فَلَمَّا كَانَ صَلَافٌ وَثُشْكٌ وَحَيَّابٌ وَمَمَّاقٌ﴾ [الأنعام: ١٦٢]
اسم المرة	٣	﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا مَوْتَنَا الْأَوَّلُ﴾ [الدخان: ٣٥]
الصفة المشبهة	٤٩	﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَلَيَهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠]

وجاء الموت في القرآن على أربعة وجوه<sup>(٢)</sup>:

الأول: الموت نفسه: ومنه قوله تعالى: **﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾** [آل عمران: ١٨٥].

الثاني: النطفة: ومنه قوله تعالى: **﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَنْوَاتٍ فَأَخْيَهُمْ** [البقرة: ٢٨]. يعني: كتم نطفاً في أصلاب الآباء فأحياكم بالخلق والإيجاد، أو كتم نطفاً في الأرحام فأحياكم فيها.

الثالث: الضلال: ومنه قوله تعالى: **﴿أَوْمَنَ كَانَ مَيِّتًا﴾** [الأنعام: ١٢٢] يعني: ضالاً فهدى به.

الرابع: الجدب وقلة النبات: ومنه قوله تعالى: **﴿وَمَاءٌ يَأْتِي مَمْدُودًا لِمَدِ الْأَرْضِ الْجِيَّةَ أَحْيَنَاهَا﴾** [يس: ٣٣]. يعني: الأرض الجدباء التي ليس عليها نبات أحيناها بالماء والنبات.

(١) انظر: المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، محمد فؤاد عبد الباقي، ص ٦٧٨-٦٨٠، المعجم المفهرس الشامل، عبد الله جلغوم، ص ١٢٩٦-١٢٩٢.

(٢) انظر: الوجوه والظائر، الدامغاني، ص ٤٢١-٤٢٠، نزهة الأعين النظائر، ابن الجوزي، ص ٥٦٩-٥٧١، عمدة الحفاظ، السمين الحلبي، ٤/١٢٢-١٢٥.

## الألفاظ ذات الصلة

## ١ الفناء

الفناء لغةً:

الفاء والنون والحرف المعتل. هذا باب لا تتقاس كلامه، ولم يبن على قياس معلوم، قالوا: فني يفني فناء، والله تعالى أفناء، والفناء مقصور، والجمع أفنية<sup>(١)</sup>.

ففي الشعف فناء، وأفناء غيره. وتفانوا، أي: أفنى بعضهم ببعضًا في الحرب<sup>(٢)</sup>. الفناء اصطلاحًا:

سقوط الأوصاف المذمومة، كما أن البقاء وجود الأوصاف المحمودة<sup>(٣)</sup>.

الصلة بين الموت والفناء:

الموت: فيه رجعة مرة أخرى في الصغرى، ولا رجعة في الكبرى، الفناء: هو الانتهاء ولا رجعة فيها.

## ٢ القتل

القتل لغةً:

«الكاف والتاء واللام أصل صحيح يدل على إذلال وإماتة، مصدر قتله قتلاً»<sup>(٤)</sup>. القتل معروف. وقتلته قتلاً وقتلًا. وقتلته قتلة سوء، بالكسر<sup>(٥)</sup>.

القتل اصطلاحًا:

إزالة الروح بفعل المتولى له<sup>(٦)</sup>.

الصلة بين الموت والقتل:

الموت: ينفي الحياة مع سلامة البنية، القتل: ينفي الحياة مع انتقاض البنية<sup>(٧)</sup>.

(١) انظر: مقاييس اللغة، ابن فارس ٤٥٣/٤.

(٢) الصحاح، الجوهرى ٦/٢٤٥٧.

(٣) التوقيف على مهمات التعريف، المناوى ص ٢٦٤.

(٤) مقاييس اللغة، ابن فارس ٥٦/٥.

(٥) الصحاح، الجوهرى ٥/١٧٩٧.

(٦) انظر: التوقيف على مهمات التعريف، المناوى ص ٢٦٨.

(٧) انظر: الفروق اللغوية، العسكري ص ١٠٤.

**الإعدام لغةً:**

العين والدال والميم أصل واحد يدل على فقدان الشيء وذهابه، من ذلك العدم، وعدم فلان الشيء إذا فقده، وأعدمه الله سبحانه وتعالى أي: أمانه، جمعه على العدماء<sup>(١)</sup> ، عدمت الشيء بالكسر، أعدمه عدماً، بالتحريك على غير قياس، أي: فقدته<sup>(٢)</sup>.

**الإعدام اصطلاحاً:**

هي شنق الإنسان، وقتله على فعل شنيع قام بارتكابه.

**الصلة بين الموت والإعدام:**

الموت وقوعه على العباد من رب العباد، الإعدام: حصوله بيد الإنسان على المذنب بمشيئة الله.

(١) انظر: مقاييس اللغة، بن فارس ٤/٢٤٨.

(٢) انظر: الصحاح، الجوهري ٥/١٩٨٢.

## الأسلوب القرآني في عرض الموت

تنوعت أساليب القرآن في عرض حقائق الموت، وسوف نتناولها بالبيان فيما يأتي:

### أولاً: حقيقة الموت والحكمة منه:

إن كنه الموت وحقيقةه متعددة معرفتها، قال الغزالي رحمه الله: «لا يمكن كشف الغطاء عن كنه الموت؛ إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة، ومعرفة الحياة متوقفة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها، وإدراك ماهية ذاتها»<sup>(١)</sup>.

وقال سيد قطب رحمه الله: «إنا لا نعرف شيئاً عن حقيقة الحياة وحقيقة الموت حتى اللحظة الحاضرة، ولكننا ندرك مظاهرهما في الأحياء والأموات، ونحن ملزمون أن نكل مصدر الحياة والموت إلى قوة ليست من جنس القوى التي تعرفها على الإطلاق، قوة الله»<sup>(٢)</sup>.

إن كل أمر قدره الباري -جل وعلا- لابد فيه من حكمة، ظهرت أم خفيت، والموت من أعظم ما قدره الله تعالى على خلقه، فقد جعله الله تعالى فتنة للانتقال من الدنيا إلى الآخرة.

قال تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِبَلَوْكُمْ أَيْسَرُ أَحَسَنُ عَمَلاً وَهُوَ أَعْزَزُ الْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢].

وإنما قدم الموت هنا لأنه المخلوق أولاً، أو لأن أقوى الناس داعياً إلى العمل من نصب موته بين عينيه<sup>(٣)</sup>.

قال ابن كثير رحمه الله: ومعنى الآية: أنه أوجد الخلاق من العدم؛ ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملاً؟ كما قال: ﴿كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُثُرْتُمْ أَنْوَاتِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

فسمى الحال الأول - وهو العدم - موتاً، وسمى هذه الشأة حياة. ولهذا قال: ﴿ثُمَّ يُبَشِّرُكُمْ ثُمَّ يُخَيِّبُكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨].

وعند ابن أبي حاتم عن قتادة، قال في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ﴾: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: (إن الله أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء)<sup>(٤)</sup>.

ونظراً لتعذر معرفة كنه الموت، فقد رتب أهل العلم الأحكام الشرعية المتعلقة به بظهور أماراته، قال ابن قدامة رحمه الله: «إذا اشتبه أمر الميت اعتبر بظهور أمارات الموت: من استرخاء رجليه وانفصال كفيه، وميل أنفه، وامتداد جلدته وجهه، وانحساف صدغيه»<sup>(٥)</sup>.

(٣) الكشاف، الزمخشري ٤/٥٧٥.

(٤) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٣٦٣.

(٥) المغني، ابن قدامة ٢/٣٠٧.

(١) إحياء علوم الدين، الغزالي ٤/٤٩٥.

(٢) في ظلال القرآن، سيد قطب ١/٢٩٨.

عمران: ١٤٤ .

وكان من دعاء النبي عليه السلام: (أعوذ بعزمك الذي لا إله إلا أنت، الذي لا يموت، والجن والإنس يموتون) <sup>(٣)</sup>. فسبحان من تفرد بالبقاء، وكتب على عباده الفناء.

إن تمني عدم ملاقة الموت لن يجعل الإنسان في حل منه بل هو ملقيه لا محالة <sup>(٤)</sup>.

قال الله: ﴿قُلْ يَأَيُّهَا الَّذِينَ هَادُوا إِنْ رَعَمْتُمْ أَنَّكُمْ أَوْلَىٰ مَعَالِمَ لِلَّهِ مِنْ دُونِ أَنَّا إِنْ فَتَنْتُمْ بِالْمَوْتِ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِنَ ﴿١﴾ وَلَا يَنْتَفِعُنَّ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْتُ أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلَيْمٌ بِالظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ إِلَّا ذَيْ تَقْرُونَ مِنْهُ فَإِنَّ اللَّهَ مُلْكُ الْمُمْلَكَاتِ ثُمَّ تُرْدُونَ إِلَى عَلَيِّ الْقِبْطِ وَالشَّهَدَةِ فَيَسْأَلُوكُمْ إِنَّمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الجمعة: ٨-٦].

ولا ينفع الهرب من الموت.

قال الله: ﴿قُلْ لَنْ يَنْفَعُكُمُ الْفَرَارُ إِنْ فَرَرْتُمُوْتَ أَوْ الْقَتْلَ وَلَا لَأَمْتَعْنَوْنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الأحزاب: ١٦].

ولن ينفع كذلك الالتجاء منه إلى بروج مشيدة: ﴿أَتَيْنَاهُ كُوْنًا يَدْرِكُكُمُ الْمَوْتُ وَلَوْكُنْتُمْ فِي بُرُوجٍ مُسَيْدَةٍ﴾ [النساء: ٧٨].

والجمع هنا في كلمة (بروج) مقصود أي: لو كتم جميعاً معتصمين ببرج، وهذا

<sup>(٣)</sup> أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى: (وهو العزيز الحكيم)،

٦ / ٢٦٨٨، رقم ٦٩٤٨.

<sup>(٤)</sup> أضواء البيان، الشنقيطي / ٨ / ١٢٠ .

## ثانيًا: الموت مصير كل حي:

إن الموت هو مصير محتوم لكل مخلوق حي، أوجده الله سبحانه؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ثُمَّ إِلَيْنَا تُرْجَعُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٧].

وقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَان﴾ [الرحمن: ٢٦].

فهنا يخبر تعالى أن جميع أهل الأرض سيذهبون ويموتون، وكذلك أهل السموات، إلا من شاء الله، ولا يبقى أحد سوى وجهه الكريم، بل هو الحي الذي لا يموت أبداً <sup>(١)</sup>. ولو نجا من الموت أحد لنجا منه أكرم البرية عن ربه محمد صلى الله عليه وسلم، ولو خلد أحد لخلد سيد الخلق صلى الله عليه وسلم، لكن الله كتبه عليه فقال: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ﴾ [الزمر: ٣٠].

ثم واسى الله تعالى رسوله، فأخبره بأن هذه سنته في خلقه، فقال: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْيَتَمَرْقِدَنَ قَبْلَكَ الْخَلَدَ أَفَإِنْ يَمِّتْ فَهُمُ الْمُنْتَدِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٤] <sup>(٢)</sup>.

ويعدها حذر المسلمين من النكوص على الأعقاب: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَّتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنَّ مَاتَ أَوْ قُتِلَ أَنْفَاقَتِمْ عَلَىٰ أَعْقَدِكُمْ وَمَنْ يَنْقِلِبْ عَلَىٰ عَيْبِيهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهُ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ أَشْكَرِينَ﴾ [آل

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير / ٧ / ٤٩٤.

(٢) القيامة الصغرى، عمر الأشقر ص ١٨.

### الإيمان والطاعة<sup>(٤)</sup>.

ولذا فإن الإنسان يتمنى الرجوع إلى دنياه ليتوب ويرجع عما اقترفه من قبل، لكن الله تعالى بين أن التوبة والإنابة لا تنفع فقط بعد الموت، بل حتى قبل خروج الروح، ومالم يغدر الإنسان.

قال الله: ﴿وَلَيَسْتَ أَنْتَبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّنُنَاتِ حَقًّا إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمُ الْمَوْتَ قَالَ إِنِّي تَبَّأْتُ الْقُنْ وَلَا الَّذِينَ يَمْوِلُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨]<sup>(٥)</sup>. قال ابن كثير رحمة الله «فاما متى وقع الإياس من الحياة، وعاين الملك، وحضرت الروح في الحلق، وضاق بها الصدر، وبلغت الحلق، وغررت النفس صاعدة في الغلاصم، فلا توبية متقبلة حينئذ، ولا ت حين مناص»<sup>(٦)</sup>.

### رابعاً: الموت كتاب مؤقت:

إن الله تعالى كتب الموت، وجعل له وقتاً لا يتقدم ولا يتأخر.

قال الله: ﴿وَلَنْ يُؤْخِرَ اللَّهُ نَفْسًا إِذَا جَاءَهُ أَجَلُهَا وَاللَّهُ خَيْرُ مَا يَعْمَلُونَ﴾ [المنافقون: ١١].

وقال: ﴿فَإِذَا جَاءَهُ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْفِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقِعُونَ﴾ [الأعراف: ٣٤].

والمعنى: سيأتي وقت محدود ينزل فيه

البرج محاط بأخر وثالث ورابع، فلن يحميك من الموت، وهذا يبين بجلاء قدرة الحق سبحانه في إنفاذ أمره بالموت<sup>(١)</sup>.

### ثالثاً: ندم الناس عند الموت:

كل الناس -مؤمنهم وكافرهم- سيندمون عند الموت، أما المؤمن فندمه على تفريطه في ساعة لم يذكر الله فيها، ويندم كذلك لعدم إكثاره من العمل الصالح، وعدم الحصول على الدرجات العليا من الجنة؛ ولذا أقسم الله بالنفس اللوامة فقال: ﴿وَلَا أَقْسِمُ بِالنَّفْسِ الْوَاجِهِ﴾ [القيمة: ٢].

قال مجاهد رحمة الله: «هي التي تلوم على ما فات، وتندم فتلوم نفسها على الشر لم عمله، وعلى الخير لم يستكثر منه»<sup>(٢)</sup>. وأقسم الحسن رحمة الله على أنها نفس المؤمن<sup>(٣)</sup>.

أما الكافر فندمه بسبب تفريطه في جنب الله.

قال الله: ﴿حَقًّا إِذَا جَاءَهُ أَحَدُهُمُ الْمَوْتَ قَالَ رَبِّي أَرْجِعُونَ﴾ [١٩] لعله أعمل صلحاً فيما ترك كلما إنها كلمة هو قائلها ومن رأيهم بزغ إلى يقين يبعثون<sup>(٤)</sup> [المؤمنون: ٩٩-١٠٠].

والمعنى: لعلي أستدرك ما ضيعت من

(٤) التفسير الميسير، مجمع الملك فهد ص ٣٤٨.

(٥) انظر: تفسير ابن أبي حاتم ٣/٩٠٠.

(٦) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير ٢/٢٣٨.

(١) تفسير الشعراوي ٤/٤٣٦.

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ١٩/٩٣.

(٣) فتح القدير، الشوكاني ٥/٣٣٥.

.٣٨

ومع أن الله تعالى أقت للموت، إلا إنه جعل هذا الأجل مجهولاً عن صاحبه؛ ليدفعه للعمل، والاستمرار على الطاعة، والانتباه والحدر من ساعة الأجل، فقال: **﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدَاءً وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ يَأْتِي أَرْضَ تَمَوْتٍ﴾** [لقمان: ٣٤].

قال قتادة رحمه الله: «أشياء استثار الله بهن، فلم يطلع عليهن ملكاً مقربياً، ولا نبياً مرسلاً **﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾** فلا يدرى أحد من الناس متى تقوم الساعة، في أي سنة أو في أي شهر، **﴿وَيَرَكُلُ الْغَيْثَ﴾** فلا يعلم أحد متى ينزل الغيث، ليلاً أو نهاراً، **﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾** فلا يعلم أحد ما في الأرحام، أذكر أم أشني، أحمر أو أسود، **﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدَاءً﴾** أخير أم شر، ولا تدرى يا ابن آدم متى تموت؟ **﴿وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ يَأْتِي أَرْضَ تَمَوْتٍ﴾** ليس أحد من الناس يدرى أين مضجعه من الأرض، أفي بحر أم بحر؟ **﴾﴾**.

**خامسًا: الموت يهد من بيده الحياة:**

الله تعالى هو خالق الحياة والموت، وجعلهما بيده سبحانه ومن اسمائه: الحي. قال الله: **﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾** [البقرة: ٢٥٥].

(٤) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير / ٦ .٣٥٥

عذابهم من الله أو يميتهم فيه **﴾﴾**.

وذكر سبحانه أنه عجل الموت على خلق وأخره على آخرين، فمنهم المستآخر والمستعجل **﴾﴾**.

قال الله: **﴿تَنْهَىٰ قَدَرَتَنَا يَتَكَبَّرُ الْمَوْتَ وَمَا تَنْهَىٰ يُمَسْبِقُونَ﴾** [الواقعة: ٦٠].

وعند مسلم من حديث ابن مسعود: أن النبي صلى الله عليه وسلم أوصى أمها أم حبيبة رضي الله عنها بعد أن دعت الله بأن يمتعها بزوجها وأبيها وأخيها، فقال: (قد سألت الله لأجال مضرورة، وأيام معدودة، وأرزاق مقسمة، لن يجعل شيئاً قبل حلها، أو يؤخر شيئاً عن حلها) **﴾﴾**.

وقد أخبر تعالى أن النقوس جميعها متعلقة بأجالها بإذن الله وقدره وقضائه، فمن حتم عليه بالقدر أن يموت مات ولو بغير سبب، ومن أراد بقائه، فلو أتي من الأسباب بكل سبب، لم يضره ذلك قبل بلوغ أجله.

قال الله: **﴿وَمَا كَانَ لِنَفِيسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا يَأْذِنُ اللَّهُ كِتَابًا مُّؤَجَّلًا﴾** [آل عمران: ١٤٥].

وقال الله: **﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾** [الرعد:

(١) فتح القدير، الشوكاني ٢/٢٠٢.

(٢) جامع البيان، الطبراني ٢٣/١٣٧.

(٣) آخر جهه مسلم في صحيحه، كتاب القدر، باب بيان أن الآجال والأرزاق وغيرها لا تزيد ولا تنقص بما سبق بها القدر، ٤/٢٠٥٠، رقم ٢٦٦٣.

نفسه؛ لأن ملك الموت لا يقدر أن يقبض روح أحد إلا بإذنه ومشيئته تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِنَفِيسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كَيْفَ كَانَ مُؤْجَلاً﴾ [آل عمران: ١٤٥].

وأسنده لملك الموت؛ لأنه هو المأمور بقبض الأرواح، وأسنده للملائكة؛ لأن ملك الموت له أعون من الملائكة تحت رئاسته، يفعلون بأمره ويترعون الروح إلى الحلقوم، فيأخذها ملك الموت»<sup>(٣)</sup>.

وقيل جواباً عليه أيضاً: إن الله تعالى هو المتفاني بخلق الموت، وأمر الوسائل بتنزع الروح، والملائكة المتفوفون أعون ملك الموت وهم يجذبون من الأظفار إلى الحلقوم، وملك الموت يتناول الروح من الحلقوم، فصحت بذلك الإضافات كلها<sup>(٤)</sup>.

والحي هو «الذي لم يزل موجوداً وبالحياة موصوفاً، لم تحدث له الحياة بعد موته، ولا يعترضه الموت بعد الحياة، وسائل الأحياء يعتورهم الموت والعدم»<sup>(١)</sup>، وإذا قيل في حق الله: هو حي، فالمعنى «لا يصح عليه الموت، وليس ذلك إلا لله عزوجل»<sup>(٢)</sup>.

والنظر في الآيات يجد أن الله أسنده الموت وأخذ الروح إلى نفسه تارة فقال: ﴿الَّهُ يَتَوَفَّ الْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَالَّتِي تَرْتَمِتُ فِي مَنَامِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. وأسنده مرة إلى الملائكة، فقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّهُمُ الْمَلَائِكَةُ﴾ [النساء: ٩٧]. وقال: ﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَهُمْ رُسُلًا يَتَوَفَّهُمْ﴾ [الأعراف: ٣٧]. وقال: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذَا يَتَوَفَّ الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ يَضَرِّونَ وُجُوهَهُمْ وَأَذْبَرَهُمْ وَذُووْقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠]. وأسنده إلى ملك الموت، فقال: ﴿فَلَمْ يُؤْفَنُكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وَكَلِّ يَكُمْ ثَمَّ إِلَّا رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ [السجدة: ١١].

فمن الذي يتوفي الأنفس حقيقة؟ وهل بين هذه الآيات تعارض؟ . قال الشنقيطي رحمة الله: «والجواب عن هذا ظاهر: وهو أن إسناده التوفي إلى

(٣) دفع إيهام الاضطراب عن آيات الكتاب، الشنقيطي ص ١٨٤.

(٤) أنموذج جليل في أسللة وأجبوبة عن غرائب آي التنزيل، الرازبي ص ٤٠٩.

(١) الأسماء والصفات، البهقي ٦٣ / ١.

(٢) المفردات، الراغب الأصفهاني ص ٢٧٩.

[الفرقان: ٤٠].

فزاد تكذيبهم وعنادهم وقالوا: ﴿وَقَالُوا إِنَّهُ لِأَحْيَا إِنَّا ذَيْنَا وَمَا نَحْنُ بِمُبْعَثُرٍ﴾ [الأعراف: ٢٩].

وقد سطرت الآيات الكريمة مشهدًا يصور منطق تلك العقلية التي نشأت على التكذيب بالبعث وظلم النفس والابتعاد عن الحق.

قال الله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْكِي الْعَظَمَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴾٧٦﴿ قُلْ يُحْكِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوْلَ مَرَةً وَهُوَ كُلُّ خَلْقٍ عَلَيْهِ ﴾٧٧﴿ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَشَرْتُمْ نَارًا ثُوَقُدُونَ ﴾٧٨﴿ أَوْلَئِنَّ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ يَقْنَدِيرُ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلْ وَهُوَ الْخَلُقُ الْعَلِيُّ﴾ [يس: ٧٨-٨١].

روى ابن أبي حاتم بسنده عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: ( جاء العاص بن وائل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعظيم حائل، ففته بيده فقال: يا محمد أيحيى الله هذا بعد ما أرم؟ ، قال: (نعم يبعث الله هذا، ثم يميتك، ثم يحييك، ثم يدخلك نار جهنم )<sup>(١)</sup>.

وقال الله: ﴿وَيَقُولُ إِنَّهُنَّ أُوَدَا مَاتُتْ لَسَوْقَ أَخْرَجَ حَيَاً ﴾ [مريم: ٦٦].

واختلف هنا في من المقصود بالإنسان؟

(١) تفسير ابن أبي حاتم ١٠/٣٢٠٢ .  
وصححه الوادعي، في الصحيح المسند من أسباب النزول ص ١٧٤ .

## الناس والموت

من عجائب القرآن أنه ركز على قضيّاً خاصة في حياة الناس، وحتى في أشد الظروف مرارة وقساوة، سواء في صحة أو سقم، في مرض أو موت، أو حرب أو سلم، فرداً أو جماعة، غنياً أو فقيراً، فسبحان من أودع العلوم في كتابه: ﴿نَاتَّرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ٣٨].

يتحدث القرآن عما يعتقده ذلك الكافر عند حضور الموت، واعتقاد المؤمن كذلك، ويتحدث عن توبّة الإنسان عند موته، وعن وصيّة الإنسان وهو على عتبة الموت، ويعطي مثلاً رائعاً عن وصيّة يعقوب لأبنائه عند موته. وسيكون بحثنا -يا ذن الله -عن هذه المسائل:

### أولاً: اعتقاد الكافر أن الموت نهاية المطاف:

يعتقد المكذبون بالبعث أن الموت هو النهاية العظمى وهو آخر المطاف، ولا بعث بعدئذ، حيث قالوا: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعَطَنَا أُوْنَا لَمْ يَعُوْنَ ﴾٨٢﴿ لَقَدْ وَعَدْنَا نَفْنُ وَمَا كَانُوا هَذَا مِنْ قَبْلِ إِنْ هَذَا إِلَّا أَسْطِرُ الْأَوَّلِينَ ﴾ [المؤمنون: ٨٢-٨٣].

ثم اعتقدوا أن لا حياة بعد ذلك ولا نشوراً.

قال الله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَحْرُنْ شُورًا﴾

الشهود، ورؤيه ما لم تره من قبل، فقال: **﴿وَجَاءَتْ سَكَرَةُ الْمَوْتِ يَأْلُقُ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحْيِدُ ﴾**<sup>(١)</sup> **﴿وَتُفْخَى فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعْدِ﴾**<sup>(٢)</sup>

وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّعَهَا سَاقِيفٌ وَشَهِيدٌ<sup>(٣)</sup> **﴿لَقَدْ كُنَّتْ فِي عَذَّلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرَكَ الْيَوْمُ حَدِيدٌ﴾** [ق: ١٩ - ٢٢].

إن المخاطب بهذه الآيات هو الإنسان<sup>(٤)</sup>، سواء كان مؤمناً أم كافراً، والمؤمن يقبله كعين يقين، فلا يشك بما جاء من عند الله.

ولما كانت نفرته منه وهربه من وقوعه بحفظ الصحة ودواء الأداء في الغاية، كان كأنه لا ينفر إلا منه، فأشار إلى ذلك بتقديم الجار فقال: **﴿وَمَنْ تَحْيِدُ﴾**<sup>(٥)</sup>.

قال أبو السعود رحمه الله: «بعدما ذكر استبعادهم للبعث والجزاء وأزيح ذلك بتحقيق قدرته تعالى وعلمه، وبين أن جميع أعمالهم محفوظة مكتوبة عليهم، أتبع ذلك ببيان ما يلاقونه لا محالة من الموت والبعث، وما يتفرع عليه من الأحوال والأهوال، وقد عبر عن وقوع كل منها بصيغة الماضي إذاناً بتحقيقها وغاية اقترابها»<sup>(٦)</sup>.

وذكر سبحانه أن خروج الروح ما هي إلا مساق إليه، فليس خروجها نهاية الأمر، قال سبحانه: **﴿لَا إِذَا بَلَغَتِ الْأَرْضِ﴾**<sup>(٧)</sup> **﴿وَقَيلَ مَنْ رَأَقَ﴾**<sup>(٨)</sup>

(١) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير / ٣٩٩.

(٤) نظم الدرر، البقاعي / ١٨ - ٤٢٣.

(٥) إرشاد العقل السليم، أبو السعود / ٨ - ١٢٩.

هل هو عام، أم أنه قصد أحداً بعينه؟. فقيل: العاص، وقيل: أبي بن خلف أو الوليد بن المغيرة<sup>(٩)</sup>.

وأيا كان، فكل من كان على هذه الشاكلة فهو مقصود، والمعنى: يقول المنكر للبعث، المستبعد لوقوعه: كيف يعيديني الله حياً بعد الموت، وبعد ما كنت رميماً<sup>(١٠)</sup>.

ولذا فإن الكافر بعد أن يعاين ما بعد الموت، يأخذ بالدعاء والتضرع بالرجوع إلى الدنيا مرة أخرى؛ ليستأنف عمله ويشرع بالحسنى، ولكن هيبات ساعتنى.

قال الله: **﴿حَقٌّ إِذَا جَاءَهُ أَحَدُهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ أَرْجُوْنَ﴾**<sup>(١١)</sup> **﴿لَعَلَّ أَعْمَلُ صَلَحاً فَيَنْزَعُ كُلَّاً إِنَّهَا كَلْمَةُ هُوَ قَالِهَا وَمَنْ وَرَأَهُمْ بَرَخَ إِلَيْهِ يَوْمَ يَعْقُلُونَ﴾** [المؤمنون: ٩٩ - ١٠٠].

وهو من كان يقول قبل: **﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ إِنَّا إِذَا مِنْ شَئْ وَكَشَّرْتَ زَرَابًا وَعَظَلَمْنَا أَنْكَرْتَ مُغَرَّبَوْنَ﴾**<sup>(١٢)</sup> هيبات هيبات لـ **﴿إِنَّهُمْ لِمَا تُؤْمِنُونَ﴾**<sup>(١٣)</sup> لأن هى إلا حياثنا الدنيا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَخْنُ بِمَتَّعْنَى﴾ [المؤمنون: ٣٧ - ٣٥].

### ثانياً: اعتقاد المؤمن أن الموت مرحلة:

وأما المؤمن، فإنه يعتقد بأن الموت ليس إلا طريقاً للدار الآخرة، وهو أول مراحلها؛ ولذا فقد أخبر الله تعالى أن مجيء الموت هو طريق لما بعده من نفع الصور، ومجيء

(١) فتح البيان، صديق خان / ٨ - ١٨٣.

(٢) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٤٩٨.

أَعْصَبَ الْيَوْمَينِ ۖ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكْذَنِينَ  
الصَّالِئِينَ ۖ قُتِلُوا مِنْ حَمِيرٍ ۖ وَنَصْلِيلَةَ جَحِيرٍ  
إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ۚ [الواقعة: ۸۳-۹۵]

وبناء على ما تبين، فإن من الألفاظ التي نهى عنها أهل العلم: قول بعض الناس: (دفن فلان في مثواه الأخير)!! لأنه من المعلوم أن الموت والقبر ما هما إلا مرحلة بين الدنيا والآخرة، فبعدهما يأتي البعث ثم الحشر، ثم العرض في يوم القيمة ثم إلى جنة أو نار: **﴿فَرِيقٌ فِي الْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي السَّعْدِ﴾** [الشورى: ۷].

ولذا فلو أطلقها إنسان معتقداً ما ترمي إليه من المعنى الإلحادي الكفري المذكور؛ كان كافراً مرتدًا فيجب إنكار إطلاقها، وعدم استعمالها<sup>(۲)</sup>.

### ثالثاً: التوبة عند الموت:

التوبة: مأخوذة من (توب)، والتاء واللواء والباء: أصل يدل على الرجوع<sup>(۳)</sup>. وتاب إلى الله تعالى من كذا وعن كذا: أتاب ورجع عن المعصية إلى الطاعة<sup>(۴)</sup>. والتوبة النصوح: هي توثيق العزم على أن لا يعود<sup>(۵)</sup>.

(۲) المنهي اللفظية، بكر أبو زيد ۴۷۶.

(۳) مقاييس اللغة، ابن فارس ۱/۳۵۷.

(۴) لسان العرب، ابن منظور ۱/۲۳۳.

(۵) التوفيق على مهمات التعاريف، المناوي ص ۲۱۳.

**وَطَنَ اللَّهُ الْفَرَاقُ ۝ وَالنَّفَقُ السَّاقُ بِالسَّاقِ ۝ إِنَّ رَبَكَ  
يَوْمَئِذٍ السَّاقُ ۝** [القيامة: ۲۶-۳۰].

قال السعدي رحمه الله: «يعظ تعالى عباده بذكر حال المحضر عند السياق، وأنه إذا بلغت روحه التراقي، وهي العظام المكتنفة لشفرة النحر، فحيثند يشتند الكرب، ويطلب كل وسيلة وسبب يظن أن يحصل به الشفاء والراحة، ولهذا قال: **﴿وَقَبْلَ مَنْ  
رَاقٌ﴾** أي: من يرقى؛ لأنهم انقطعت آمالهم من الأسباب العادية، فلم يبق إلا الأسباب الإلهية. ولكن قضاء الله إذا حتم فلا مرد له. **﴿وَطَنَ اللَّهُ الْفَرَاقُ﴾** للدنيا. **﴿وَالنَّفَقُ السَّاقُ بِالسَّاقِ﴾** أي: اجتمعت الشدائد والتفت، وعظم الأمر وصعب الكرب، وأريد أن تخرج الروح التي أفلت البدن ولم تزل معه، فتساق إلى الله تعالى، حتى يجازيها بأعمالها، ويقررها بفعالها<sup>(۱)</sup>.

ثم إن الموت إما جسر يمد للمؤمن إلى الجنة، أو جسر يمد للكافر إلى جهنم والعياذ بالله.

قال تعالى: **﴿فَلَوْلَا إِذَا بَلَقْتَ الْمَلْقُومَ  
وَأَنْتَهُ جِنِيلٌ نَظَرْتُونَ ۝ وَنَعْنَ أَقْرَبَ إِلَيْهِ مِنْكُمْ  
وَلَكُنْ لَا تُبَصِّرُونَ ۝ فَلَوْلَا إِنْ كُنْتُمْ عَيْنَ مَدِينَ  
تَرْجَعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَدِيقِينَ ۝ فَأَمَّا إِنْ كَانَ  
مِنَ الْمُقْرَبِينَ ۝ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَحَنَّتْ تَعْبِرُ  
وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ أَعْصَبِ الْيَمِينِ ۝ فَسَلَّمَ لَكَ مِنْ**

(۱) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ۹۰۰.

أَشْرَقُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا يَنْتَظِرُوا مِنْ رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ  
اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ  
[الزمر: ٥٣].

ولذا كان واجبًا على الخلق أن يادروا بالتوبيخ إلى الله، بل واتفقت الأمة على ذلك <sup>(٢)</sup>، فإن فعلوا فقد أوجب الله على نفسه قبولها منهم في وقتها، فقال: ﴿إِنَّمَا  
الْتَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ الشَّرَّ وَهُنَّ مُمْلِكُوْنَ  
يَتُوبُونَ مِنْ قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ  
وَكَانَ اللَّهُ عَلَيْهِ حِكْمَةً﴾ [النساء: ١٧].  
وحتى تكون توبية العبد مقبولة عند الله، لابد وأن تكون في وقتها، ووقتها الذي قدره الله موسوع، وهو من وقوع الذنب إلى ما قبل حضور الموت.

قال الله: ﴿وَلَيَسْتَ أَتَوْبَةً لِلَّذِينَ  
يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَقَّ إِذَا حَضَرَ أَحَدُهُمْ  
الْمَوْتَ قَالَ إِنِّي تَبَّتِ الْأَنْفَنَ وَلَا أَلَّمَ بِنَيْمَوْتُونَ  
وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا  
أَلِيمًا﴾ [النساء: ١٨].

يعني بذلك -جل ثناوه-: وليس التوبية للذين يعملون السيئات من أهل الإصرار على معاصي الله حتى إذا حشرج أحدهم بنفسه، وعاين ملائكة ربه قد أقبلوا إليه لقبض روحه، ثم قال: وقد غالب على نفسه، وحيل بينه وبين فهمه، بشغله بكرب حشرجته وغرغريته: ﴿إِنِّي تَبَّتِ الْأَنْفَنَ﴾

(٢) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي ص ٩٠ / ٥.

والتبوية هي ترك الذنب مخافة الله، واستشعار قبحه، وندم على المعصية من حيث هي معصية، والعزمية على لا يعود إليها إذا قدر عليها، وتدارك ما أمكنه أن يتدارك من الأعمال <sup>(١)</sup>. وحقيقةها ليست فقط ترك الذنب، بل لابد فيها من التزام بأمر الله.

وقد أتت التوبية في القرآن على ثلاثة أوجه <sup>(٢)</sup>:

أولاً: بمعنى الندم: كقوله تعالى: ﴿فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيْكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ﴾ [البقرة: ٥٤].

ثانياً: بمعنى التجاوز: كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ تَأَبَّلَ اللَّهُ عَلَى الْأَنْقَىٰ وَالْمُهَاجِرِينَ  
وَالْأَنْصَارِ﴾ [التوبية: ١١٧].

ثالثاً: بمعنى الرجوع عن الشيء: كقول موسى عليه السلام: ﴿تَبَّتِ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ  
الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

وقد أمر الله عباده بالتوبية فقال: ﴿وَتُوبُوا  
إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَئِمَّةُ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [النور: ٢١].

وبشرهم بقبولها بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبِلُ  
الْتَّوْبَةَ عَنِ عَبْدِهِ﴾ [الشورى: ٢٥].

وفتح لهم باب الرجاء، بعفوه عنهم ومغفرته لهم، فقال: ﴿لَمْ يَعْبُدِي الَّذِينَ

(١) التوبية إلى الله، صالح السدلان ص ١٠.

(٢) قاموس القرآن، الدامغاني ص ٩٠.

من قبل<sup>(٥)</sup>). ثم قرأ الآية<sup>(٦)</sup>.

#### رابعاً: الوصية عند الموت:

الوصية في اللغة: أخذت هذه اللفظة من وصيت الشيء إذا أوصلته<sup>(٧)</sup>.

أما شرعاً فتعني: تمليك مضاف إلى ما بعد الموت بطريقه التبرع<sup>(٨)</sup>.

والوصية مشروعة بالكتاب والسنّة

وأجماع الأمة:

أما بالكتاب فلورود الآيات الكثيرة التي دلت على مشروعيتها.

قال الله: ﴿ كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا وَالْوَصِيَّةُ لِلَّوَادِيَّنَ وَالْأَقْرَبِينَ يَا لِمَرْفُوفٍ حَقًا عَلَى الْمُنَّقِينَ ﴾ [البقرة: ١٨٠].

وعن ابن عمر رضي الله عنهمما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (ما حق امرئ مسلم له شيء يوصي فيه، بيسط ليثنين إلا ووصيته مكتوبة عنده). قال ابن عمر: ما مرت على ليلة منذ سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ذلك إلا وعندي وصيتي<sup>(٩)</sup>.

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب (لا ينفع نفساً إيمانها)، ٦/٥٨، رقم ٤٦٣٥.

(٦) لسان العرب، ابن منظور ١٥/٣٩٤.

(٧) حاشية ابن عابدين ٦/٦٤٧.

(٨) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب الوصايا، ٣/١٠٥، رقم ٢٥٨٧.

يقول: فليس لهذا عند الله توبه؛ لأنه قال ما قال في غير حال توبة<sup>(١)</sup>.

وذكر هذا النبي صلى الله عليه وسلم حيث قال: (إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَ لِيَقْبِلَ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يَغْرِرْهُ)<sup>(٢)</sup>، وقوله: (مَا لَمْ يَغْرِرْهُ) أي: مَا لَمْ تَبْلُغْ رُوحَه حَلْقَوْمَه<sup>(٣)</sup>.

وقتها كذلك إلى ما قبل رؤية العذاب أو بعض علامات الساعة.

قال الله: ﴿ هَلْ يَنْظَرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيهِمْ الْمَلَائِكَةُ أَوْ يَأْتِيَنَّ رَبُّكُمْ أَوْ يَأْتِيَنَّ بَعْضُ مَا يَنْتَهَى رَبُّكُمْ يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ مَا يَنْتَهَى رَبُّكُمْ لَا يَنْعَنُ نَفْسًا إِيمَانَهَا تَكُونُ عَامَّةً مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتِ فِي إِيمَانِهَا حَتَّىٰ قُلْ أَنْتُنَّ وَإِنَا مُنَظَّرُونَ ﴾ [الأనعام: ١٥٨].

وجمهور المفسرين على أن المقصود بقوله: (يَأْتِيَنَّ بَعْضُ مَا يَنْتَهَى رَبُّكُمْ) أي: طلوع الشمس من مغربها<sup>(٤)</sup>.

وقد بين النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله: لا تقوم الساعة حتى تطلع الشمس من مغربها، فإذا رأها الناس آمن من عليها، فذاك حين ﴿ لَا يَنْعَنُ نَفْسًا إِيمَانَهَا تَكُونُ عَامَّةً

(١) جامع البيان، الطبراني ٩٨-٩٩.

(٢) آخر جه الترمذى في سنته، أبواب الدعوات، ٥/٥٤٧، رقم ٢٥٣٧.

(٣) قال الترمذى: حسن غريب.  
وحسنة الألبانى في صحيح الجامع، ١/٣٨٦. رقم ١٩٠٣.

(٤) قوت المغتنى على جامع الترمذى، السيوطي ٩٥٥، رقم ٣٥٣٧.

(٥) فتح البيان، صديق خان ٤/٢٨٣.

عَقِيقَهُ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾ [الزخرف: ٢٨] <sup>(٣)</sup>  
 قال الطبرى: «هي قوله: ﴿قَالَ أَشْلَمْتُ لَهُتِ الْعَلَمَيْنَ﴾ [البقرة: ١٣١] <sup>(٤)</sup>. قال ابن كثير: «وقد فرأ بعض السلف (ويعقوب) بالنصب عطفاً على بنيه، كأن إبراهيم وصي بنيه وابن ابنته يعقوب بن إسحاق وكان حاضراً ذلك»، ثم قال: «والظاهر - والله أعلم -، أن إسحاق ولد له يعقوب في حياة الخليل وساره» <sup>(٥)</sup>. وكيف ينهاهم يعقوب عن الموت وليس الموت إليهم، فيصبح أن ينهوا عنه؟

والجواب: «أنهم لم ينهوا عن الموت، وإن كان اللفظ على ذلك، وإنما نهوا في الحقيقة عن ترك الإسلام؛ لثلا يصادفهم الموت عليه، فإنه لا بد منه. وتقديره: الثبتوا على الإسلام؛ لثلا يصادفكم الموت وأنتم على غيره» <sup>(٦)</sup>.

بعدها يبين الله مشهد يعقوب مع أبنائه الذين حضروا موتة؛ ليوصيهم وصية مودع، لكنها على سبيل الاختبار، فلما سألهما أجابوه بما أطمأنوا إليه نفسه، وقررت به عينه، بأنهم على دين التوحيد وأنهم لن يشركوا به، وسيعملون بما اعتقادوه ﴿وَنَحْنُ لَهُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٣].

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير / ١٤٤٦.

(٤) جامع البيان، الطبرى / ٣ / ٩٣.

(٥) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير / ١٤٤٦.

(٦) النك فى القرآن الكريم، المجاشعي ص ١٥٤.

ونقل ابن قدامة رحمه الله الإجماع على مشروعيتها <sup>(١)</sup>.

قال ابن عبد البر - رحمه الله: «أجمعوا على أن الوصية غير واجبة، إلا على من عليه حقوق بغير بيته، وأمانة بغير إشهاد، إلا طائفة شذت فأوجبتها» <sup>(٢)</sup>.

يخبرنا القرآن عن ذلك المشهد المؤثر بين يعقوب عليه السلام عندما حضرته الوفاة وأبنائه، ولنا أن نتخيل هذا المشهد بصورته المعهودة: أب مضطجع ومسجى في غطائه يكابد الموت، وأبناء حوله جلوس يرقبونه، ويتألمون لفراقه، عند ذلك يتراك يعقوب الحديث عن الألم والفرقان وينظر إلى ما هو أجل وأجمل.

ويسوق القرآن لنا هذا الحوار بين يعقوب وبينه داعياً إلى تأمل الحوار.

قال الله: ﴿وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمَ بْنَهُ وَيَعْقُوبَ يَبْيَقَ إِنَّ اللَّهَ أَضَطَقَنِي لَكُمُ الَّذِينَ قَلَّا تَمُوْذِنَ إِلَّا وَأَشَرَّ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾ أَمْ كُنْتُمْ شَهَادَةً إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِتَنِي مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَجَدَّا وَنَحْنُ لَدُنْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٢ - ١٣٣].

والكلمة التي وصى بها إبراهيم بنيه هي التي قال الله عنها: ﴿وَجَعَلَهُمْ كَلْمَةً بَاقِيَةً فِي

(١) المغني، ابن قدامة / ٦ / ١٣٧.

(٢) المجموع، النووي / ١٥ / ٤٠١.

مثل حظ الأنثيين، وجعل للأبوبين لكل واحد منها السادس، للمرأة الثمن والربع، وللزوج الشطر والربع»<sup>(٥)</sup>.

وأما الموضع الثالث فهو قول الله: ﴿يُوصِيكُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ﴾ وفي الآية: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَهَا أَوْ دِينَ﴾ [النساء: ١١].

والآية التي تليها مباشرة ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَهَا أَوْ دِينَ﴾، ثم: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوَصَّوْتَ بِهَا أَوْ دِينَ﴾، ثم: ﴿مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِيَهَا أَوْ دِينَ﴾ [النساء: ١٢].

وهذه الآيات تبين أن الوصية أو الدين مقدمان على قسمة الميراث؛ لأن الدين حق على الميت والوصية حق له، وإذا كان الدين والوصية قد وقعا معاً فيقدم الدين على الوصية<sup>(٦)</sup>.

والموضع الأخير هو قوله تعالى: ﴿يَتَاهُا الَّذِينَ مَأْمَنُوا شَهَدَةَ بَيْنَكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ حِينَ الْوَصِيَّةُ أَشَانَ ذَوَا عَدْلٍ مِنْكُمْ أَوْ مَلِخَارَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ إِنْ أَنْتُمْ ضَرِيْتُمْ فِي الْأَرْضِ فَاصْبِرُوكُمْ مُصِيبَةُ الْمَوْتِ تَعْجِسُونَهُمَا مِنْ بَعْدِ الْأَصْلَوْةِ فَيُقْسِمَانِ بِاللَّهِ إِنْ أَرْبَتُمْ لَا نَشَرِّي بِهِ شَمَائِلَ وَلَا كَنْتُمْ شَهَدَةَ

(٥) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، باب لا وصية لوارث، ٣ / ١٠٠٨، رقم ٢٥٩٦.

(٦) انظر: النكت والعيون، الماوردي ١ / ٦٥٩.

فجمعوا بذلك بين العلم والعمل<sup>(١)</sup>. وبالرغم من كل ما قام به إخوة يوسف من جرائم إلا إنهم تمسكوا بدينهم. والحقيقة أن هذه أعظم الوصايا وأرفعها قدرًا وأعلاها شأنًا، كيف لا وهي مختصة بأرفع الأمور وهو توحيد الله، والبعد عن الشرك.

والموضع الآخر الذي ذكر الوصية عند الموت هو قوله تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدِيْنِ وَالْأَقْرَبِيْنَ بِالْمَعْرُوفِ حَقًا عَلَى الْمُتَقْبِلِيْنَ فَمَنْ بَدَأَهُ بَعْدَ مَا يَسْعَدُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِيْنَ يُبَدِّلُوْهُ﴾ [آل عمران: ١٨١-١٨٠].

ومعنى الآية: فرض عليكم إذا حضرت لأحدكم مقدمات الموت وأسبابه وعلله، إن ترك مالاً أن يوصي لوالدينه والأقارب، وهذا واجب على كل من يتقي الله<sup>(٢)</sup>.

قال السعدي رحمه الله: «واعلم أن جمهور المفسرين يرون أن هذه الآية منسوخة بآية المواريث»<sup>(٣)</sup>. (وليعلم أن الله لا يتبع في وقت من الأوقات إلا بما فيه الحكمة البالغة»<sup>(٤)</sup>.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «كان المال للولد، وكانت الوصية لوالدينه، فنسخ من ذلك ما أحب، فجعل للذكر

(١) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٦٦.

(٢) معالم التنزيل، البغوي ١ / ١٩٢.

(٣) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٨٥.

(٤) معاني القرآن، الزجاج ١ / ٢٥٠.

في شهادتهما فقفوهما من بعد الصلاة، فيقسمان بالله قسمًا خالصاً لا يأخذان به عوضًا من الدنيا، ولا يحييان به ذا قربة منها، ولا يكتمان به شهادة لله عندهما، وأنهما إن فعلاً ذلك فهمَا من المذنبين<sup>(٤)</sup>.

ويمكن أن يستدل بهذه الآية الكريمة على عدة أحكام<sup>(٥)</sup>:

**أولاً:** أن الوصية مشروعة، وأنه ينبغي لمن حضره الموت أن يوصي.

**ثانيًا:** تعظيم أمر الشهادة حيث أضافها تعالى إلى نفسه، وأنه يجب الاعتناء بها والقيام بها بالقسط.

**ثالثًا:** أنها معتبرة، ولو كان الإنسان وصل إلى مقدمات الموت وعلاماته، ما دام عقله ثابتًا.

**رابعًا:** أن شهادة الوصية لابد فيها من اثنين عدلين.

**خامسًا:** أن شهادة الكافرين في هذه الوصية ونحوها مقبولة لوجود الضرورة.

**خامسًا: وقوع موت ثم حياة في الدنيا:**  
لما حصل إنكار من بعض البشر على قدرة الله في بعث الخلق يوم القيمة، أعطى الله بعض الإشارات الواقعية في الدنيا؛ لتدل على صدق وقوعه في الآخرة، فأبانه الله حقيقة مشاهدة في أكثر من موطن،

(٤) التفسير الميسر، مجمع الملك فهد ص ١٢٥.

(٥) تيسير الكريم الرحمن، السعدي ص ٢٤٦.

الله إِنَّا إِذَا أَئْتَنَا الْأَئْنَىٰ<sup>(١)</sup> [المائدة: ١٠٦].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خرج رجل من بنى سهم مع تميم الداري وعدى بن بداء، فمات السهمي بأرض ليس بها مسلم، فلما قدموا بتركته فقدوا جاما<sup>(٢)</sup> من فضة مخصوصاً من ذهب، فاحلف لهم رسول الله - صلى الله عليه وعلى آله وسلم - ثم وجدوا الجام بمكة، فقالوا: ابتعناه من تميم وعدى، فقام رجلان من أولياء السهمي، فحلقا لشهادتنا أحق من شهادتهما، وأن الجام لصاحبهم. قال: وفيهم نزلت هذه الآية: **يَتَابُهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَدَةَ بَيْتِكُمْ إِذَا حَضَرُ أَحَدُكُمُ الْمَوْتَ<sup>(٣)</sup>** [المائدة: ١٠٦].

قال ابن كثير رحمه الله: «الأكثرون على أن هذه الآية محكمة، وليس فيها نسخ، ومن أدعى النسخ فعليه البيان»<sup>(٤)</sup>.

ومعنى الآيات يا أيها المؤمنون: إذا قرب الموت من أحدكم، فليشهد على وصيته اثنين أميين من المسلمين، أو آخرين من غير المسلمين عند عدم وجود غيرهما من المسلمين، تشهدونهما إن أنتم سافرتم في الأرض فحل بكم الموت، وإن ارتبتم

(١) الجام: الكأس أو الإناء. ومخصوصاً أي: متقوشاً.

انظر: فتح الباري، ابن حجر / ٥ - ٤١٠ - ٤١١.

(٢) آخر جه البخاري في صحيحه، كتاب الوصايا، ٤ / ١٣، رقم ٢٧٨٠.

(٣) تفسير القرآن العظيم، ابن كثير / ٣ - ٢١٥.

**خَاوِيَّةٌ عَلَىٰ عُرْوَشِهَا قَالَ أَنَّىٰ يُمْحَىٰ هَذِهِ أَلْهَةُ  
بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مَا تَهَاجَرَ ثُمَّ بَعْثَدَهُ**

[البقرة: ٢٥٩].

٥. فطلب إبراهيم من ربه أن يريه كيفية الإحياء، قال: **فَرَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِي  
الْمَوْتَ** [البقرة: ٢٦٠].

فأحيا بعض البشر، ومن قدر على هذا في الدنيا، هان عليه الأمر بعد.

وقد ذكرت سورة البقرة وحدها أمثلة متعددة على وقوع الموت ثم الحياة في الدنيا، وبيانه:

١. أول القصص في ذكر الإحياء صراحة في الدنيا، هي عندما طلب قوم موسى منه، أن يريهم الله جهرة، فأخذتهم الصاعقة. قال الله: **إِنَّمَا يَعْلَمُكُمْ مِنْ  
بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشَكُّرُونَ** [البقرة: ٥٦].

٢. بعدها تأتي القصة الثانية التي صرحت بالإحياء في الدنيا، وهي قصة بقرة بنى إسرائيل، التي أمرهم الله أن يذبحوها؛ كي يكشفوا جريمة القتل. قال الله: **فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِعَيْنَاهَا كَذَلِكَ  
يُغَيِّبُ اللَّهُ الْمَوْتَ وَرُبِّكُمْ إِذَا يَتَمَّ لَعْلَكُمْ  
تَعْقِلُونَ** [البقرة: ٧٣]. ثم يأتي التصریح بأن الشهداء أحياء عند الله، وليسوا بأموات، فقال: **وَلَا تَنْسُلُوا لِمَنْ يَقْتَلُ  
فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاهُ وَلَكِنْ لَا  
تَشْعُرُونَ** [البقرة: ١٥٤].

٣. ثم يصرح الله تعالى بالإحياء في قصة **الَّذِينَ حَرَجُوا مِنْ دِيَرِهِمْ وَهُمْ  
أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتَ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُؤْمِنُو ثُمَّ  
أَخْيَهُمْ** [البقرة: ٢٤٣].

٤. ثم قصة الذي مر على قرية **وَهُنَّ**

## الموت والآخرة

ويمدونها للاطلاع على ما سيحدث من ذبح  
للموت.

وقول الله: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحُسْنَةِ إِذْ  
قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي:  
وأنذرهم يوم القيمة، ﴿إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ﴾  
أي: إذ فرغ من الحكم لأهل النار بالخلود  
فيها، ولأهل الجنة بمقام الأبد فيها، بذبح  
الموت. ﴿وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ وَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي:  
وهؤلاء المشركون في غفلة عما الله فاعل  
بهم يوم يأتونه خارجين إليه من قبورهم، من  
تخليله إياهم في جهنم، وتوريثه مساكنهم  
من الجنة غيرهم. ﴿وَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ أي:  
وهم لا يصدقون بالقيمة والبعث، ومجازاة  
الله إياهم على سوء أعمالهم، بما أخبر أنه  
مجازاً لهم <sup>(٢)</sup>.

والحكمة من الإتيان بالموت هكذا:  
إشارة إلى أنهم حصل لهم الفداء له كما  
فدي ولد إبراهيم بالكبش. والحكمة في  
جعله كبشًا أملح: حتى يجمع بين صفتين  
أهل الجنة والنار: وهي السواد والبياض <sup>(٣)</sup>.

قال ابن القيم رحمه الله: «وَهُذَا الْكَبِشُ  
وَالْإِضْجَاعُ وَالذِّبْحُ وَمَعَايِنُ الْفَرِيقَيْنِ حَقِيقَةٌ  
لَا خِيَالٌ وَلَا تَمْثِيلٌ، كَمَا أَخْطَأَ فِيهِ بَعْضُ  
النَّاسِ، وَقَالَ: الْمَوْتُ عَرْضٌ، وَالْعَرْضُ لَا

(٢) جامع البيان، الطبراني / ١٨ / ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) فتح الباري، ابن حجر / ١١ / ٤٢٠ .

أخبر القرآن أن لا موت في الآخرة، وإنما  
هو خلود في الجنة أو النار، وسنوضح هذا  
المعنى فيما يأتي:

### أولاً: حال الموت في الآخرة:

بعد كل هذا يبين لنا النبي صلى الله عليه  
 وسلم نهاية الموت يوم القيمة وانتهاء أمره،  
 قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (يؤتى  
 بالموت كهيئة كبش أملح، فينادي مناد: يا  
 أهل الجنة، فيشربون وينظرون، فيقول: هل  
 تعرفون هذا؟، فيقولون: نعم، هذا الموت،  
 وكلهم قد رأه. ثم ينادي: يا أهل النار،  
 فيشربون وينظرون، فيقول: هل تعرفون  
 هذا؟، فيقولون: نعم، هذا الموت، وكلهم  
 قد رأه، فيذبح. ثم يقول: يا أهل الجنة خلود  
 فلا موت، ويا أهل النار خلود فلا موت. ثم  
 قرأ: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الْحُسْنَةِ إِذْ قُضِيَ الْأَمْرُ وَهُمْ  
 غَافِلُونَ﴾ (وهؤلاء في غفلة أهل الدنيا) ﴿وَهُمْ  
 لَا يَرْجِعُونَ﴾ [مريم: ٣٩] <sup>(١)</sup>.

والمعنى من قوله عليه السلام: أن الموت  
سيجسد كهيئة كبش مختلط سواده بياضه،  
وعندما ينادي الفريقان، سيرفعون أعناقهم

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير،  
باب تفسير سورة مريم، ٤ / ١٧٦٠ ، رقم  
٤٤٥٣.

ينقطعان، قال النبي صلى الله عليه وسلم: (يُنَادِي مَنَادٌ: إِنَّ لَكُمْ أَنْ تَصْحُوا فَلَا تَسْقُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَحْيُوا فَلَا تَمُوتُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَشْبُوا فَلَا تَهْرُمُوا أَبَدًا، وَإِنَّ لَكُمْ أَنْ تَعْمُوا فَلَا تَبْأُسُوا أَبَدًا). فذلك قوله عز وجل:

**﴿وَتُؤَدَّوْا أَن يَلْكُمُ الْجَنَّةَ أُوْرَثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** [الأعراف: ٤٣].<sup>(٥)</sup>

### ثانيًا: لا موت في الآخرة:

إذا دخل أهل الجنة وأهل النار النار، وذبح الموت بينهما، فإنه لا موت بعدئذ، فأهل الجنة خلود فلا موت، وأهل النار خلود فلا موت.

وقد ساقت الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة الصورة العامة حيال هذا الخلود، ومعظم الآيات ساقت الكلام عن أصحاب النار.

قال الله في شأنهم: **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارٌ جَهَنَّمَ لَا يَقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا لَا يُخْفَى عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ يُغْرِي كُلَّ كَافُورٍ﴾** [فاطر: ٣٦].

لذا فعداب الدنيا إما أن تموت عنه، أو يموت عنك، أو يألفه البدن المعدب. أما عذاب الآخرة فلن تموت عنه، ولن

آخرجه مسلم في صحيحه، كتاب الجنة وصفة نعيها وأهلها، باب في دوام نعيم أهل الجنة، ١٤٨/٨، رقم ٧٢٥٩.

يتجمس فضلاً عن أن يذبح!. وهذا لا يصح؛ فإن الله سبحانه ينشئ من الموت صورةكبش يذبح، كما ينشئ من الأعمال صوراً معاينة يثاب بها ويعاقب...، ولا حاجة إلى تكلف من قال: إن الذبح لملك الموت!. فهذا كله من الاستدراك الفاسد على الله ورسوله، والتأنويل الباطل الذي لا يوجهه عقل ولا نقل».<sup>(١)</sup>

والحقيقة أن الله تعالى لا يعجزه شيء، وليس هذا بعزيز عليه، فهو قادر سبحانه أن ينشئ جسمًا من عرض، وأمثاله كثيرة في القرآن والسنة، ومنها:

جعل البقرة وأل عمران كالغماتين<sup>(٢)</sup>، والتسبيح والتحميد الذي يتعاطف حول العرش<sup>(٣)</sup>، وتصوير العمل الصالح والسيء في القبر<sup>(٤)</sup>.

وبعد ذبح الموت بهذه الصورة، لك أن تتصور ذلك المشهد المهيب، وحالة كل من الفريقين: فريق في شقاء وتعاسة دائمين لا ينقطعان، وفريق في سعادة وحبور أبدى لا

(١) حادي الأرواح، ابن القيم ص ٤٠٢.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه، كتاب صلاة المسافرين وقصرها، باب فضل قراءة القرآن، ٥٥٣ / ١، رقم ٨٠٤.

(٣) أخرجه أحمد في مسنده، ٣١٢ / ٣٠، رقم ١٨٣٦٢.

(٤) أخرجه أحمد في مسنده، ٢٨٧ / ٤، رقم ١٨٥٥٧.

ولننظر هنا إلى كلمة (غليظ)، كم تعطي من دلالات مروعة لهذا المشهد المهيب، وأغلب ورود هذه الكلمة في القرآن في شأن العذاب أو الميثاق؛ لشدة وغلظ الأمرين، وأتت الكلمة كذلك مع قتال الكفار؛ ليجد هؤلاء الغلظة والعذاب الأليم من الثلة المؤمنة المجاهدة التي عقدت المواثيق بقتالهم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آتَيْنَاكُمْ مِّنَ الْكُفَّارِ وَلَيَحِدُوا فِي كُمْ غَلَظَةً وَأَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبه: ١٢٣]. ولذلك لو أن الموت يقدم إلى هذا المدبر في هذه اللحظات العصبية، لكان أخف وطأة، ولكنه يراه يحوم حوله بأساليبه ودوافعه ودعائيه، دون أن يصييه.

وبعد كل هذه الآلام والمعذبات التي يتعرض لها هذا العنيد، يجد لنفسه مخرجاً من هذا البلاء، وهو أن يطلب من مالك خازن النار - أن يشفع لهم عند الله، بأن يقضي عليهم.

قال الله: ﴿وَنَادَوْا يَنْكِيلُكَ لِيَقْضِي عَيْنَاتَ رَبِّكَ قَالَ إِنَّكُمْ تَكُونُونَ﴾ [الزخرف: ٧٧].

إن قيل: كيف وصف أهل النار فيها بأنهم مبلسون؟، والبلس: هو الآيس من الرحمة والفرج <sup>(٢)</sup>، ثم قال بعدها: ﴿وَنَادَوْا يَنْكِيلُكَ لِيَقْضِي عَيْنَاتَ رَبِّكَ﴾ الدال على طلبهم

يفنى عنك، ولن يألفه البدن؛ لأنه يلون ولا يخفف. ﴿كُلَا تَنْجَى جُلُودُهُمْ بَدَلْتُهُمْ جُلُودًا غَرَّهَا لِيَدُوْهُمُ الْعَذَابُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ٥٦].

ويصور لنا القرآن ذلك المشهد النفسي الذي يعيشه الكافر في النار، حتى أنه يرى الموت يحيط به ويأتيه من كل مكان فيها، لكنه لن يذوقه.

قال الله: ﴿وَاسْتَقْتَحُوا وَخَابَ كُلُّ جَبَارٍ عَنِيدٍ﴾ <sup>(١)</sup> مِنْ وَرَائِيهِ جَهَنَّمْ وَسَقَى مِنْ مَلَوْ صَدِيدٍ <sup>(٢)</sup> يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسْيِغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِسَيِّئٍ وَمِنْ وَرَائِيهِ عَذَابٌ غَلِظٌ﴾ [إبراهيم: ١٥ - ١٧].

والحقيقة أن المشهد هنا عجيب، إنه مشهد الخيبة لكل جبار عنيد، مشهد الخيبة في هذه الأرض. ولكن يقف هذا الموقف، ومن ورائه تخايل جهنم وصورته فيها، وهو يُسْقى من الصديد السائل من الجسوم، يُسْقاه بعنف فيتجزءه غصباً وكرهاً، ولا يكاد يُسْيِغُه؛ لقدراته ومرارته. والتقرز والتكره باديان، نكاد نلمحهما من خلال الكلمات!، ويأتيه الموت بأسبابه المحيطة به من كل مكان، ولكنه لا يموت؛ ليستكملاً عذابه. ومن ورائه عذاب غليظ» <sup>(١)</sup>.

(٢) لسان العرب، ابن منظور ٦ / ٣٠.

(١) في ظلال القرآن، سيد قطب ٤ / ٢٠٩٣.

وروى الطبرى كذلك بسنده قال: «وَنَادَوْا يَمِنَكُلَّ لِيَقْضِي عَيْتَنَارِكَ» قال: فخلى عنهم أربعين عاماً لا يجيبهم، ثم أجابهم: «إِنَّكُمْ مُنْكَرُونَ» قالوا: «رَبَّنَا أَخْرَجَنَا مِنْهَا فَإِنَّ عَدْنَانَ قَائِمًا طَلَمُونَ» فخلى عنهم مثلثي الدنيا، ثم أجابهم: «قَالَ أَخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تَكْلُمُونَ» قال: فوالله ما نبس القوم بعد الكلمة، إن كان إلا الزفير والشهيق»<sup>(٥)</sup>. ويکفي الإشارة إلى باقي الآيات التي نفت موت الكفار في النار، وهي قوله تعالى على لسان السحرة: «إِنَّهُمْ مِنْ يَأْتِ رَبَّهُمْ مُجْرِمًا فَإِنَّ رَبَّهُمْ جَهَنَّمَ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَبْعَثُ [٧٤].

وقوله تعالى: «سَيَذَكَّرُ مَنْ يَخْشَى وَيَنْجَبُنَّا أَلْشَقَى»<sup>(٦)</sup> الَّذِي يَصِلُّ أَنَارَ الْكُبُرَى ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا وَلَا يَبْعَثُ»<sup>(٧)</sup> [الأعلى: ١٠ - ١٣].

أما في شأن المؤمنين يوم القيمة ونبي الموت عنهم، فقد قال الله: «يَدْعُونَ فِيهَا يُكْلِلُ فَنَكَهَةً مَاءِمِينَ لَا يَدْعُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةُ الْأُولَى وَوَقْتُهُ عَذَابُ الْجَحِيرِ فَضْلًا مِنْ رَبِّكَ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ»<sup>(٨)</sup> [الدخان: ٥٥ - ٥٧].

والمعنى: أنهم لا يذوقون فيها الموت أبداً، سوى الموتة الأولى التي ذاقوها في الدنيا<sup>(٩)</sup>.

الفرج بالموت؟ فيجاب عنه: بأن كل منها وقع في زمن؛ لأن أزمنة يوم القيمة متعددة<sup>(١)</sup>.

وهنا أتي بالفعل الماضي «وَنَادَوْا» لتحقق وقوعه، وقولهم: «يَمِنَكُلَّ» هو خازن النار، وقد وردت أحاديث صحية في ذلك، منها: قول النبي صلى الله عليه وسلم: (رأيت الليلة رجلين أثياني قالا: الذي يوقد النار مالك خازن النار، وأنا جبريل وهذا ميكائيل)<sup>(٢)</sup>.

قال صديق خان: «قرأ الجمهور: «يَمِنَكُلَّ» بغير الترخيم، وقرئ: (يا مال) بالترخيم، قيل لابن عباس: إن ابن مسعودقرأ: (يا مال)، فقال: ما أشغل أهل النار عن الترخيم»<sup>(٣)</sup>.

قال الطبرى رحمه الله: «ونادى هؤلاء المجرمون بعد ما أدخلهم الله جهنم، فنالهم فيها من البلاء ما نالهم، مالكا خازن جهنم، «يَمِنَكُلَّ لِيَقْضِي عَيْتَنَارِكَ» قال: ليمننا ربك، فيفرغ من إماتتنا، فذكر أن مالكا لا يجيبهم في وقت قيلهم له ذلك»<sup>(٤)</sup>.

(١) فتح الرحمن، ابن جماعة ص ٥١٥.

(٢) آخر جه البخاري في صحيحه، كتاب بدء الخلق، باب إذا قال أحدهم: أمين، والملائكة في السماء فوافقت إحداهما الأخرى غفر له ما تقدم من ذنبه، ١١٨٢ / ٣، رقم ٣٠٦٤.

(٣) فتح البيان، صديق خان ١٢ / ٣٧٥.

(٤) جامع البيان، الطبرى ٢١ / ٦٤٠.

(٥) المصدر السابق ٢١ / ٦٤٥.

(٦) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج ٤ / ٤٢٩.

ثم كيف يوجه قوله تعالى عن أهل النار وأهل الجنة أنهم خالدون فيها إلا ما شاء الله.

قال الله: ﴿فَأَنَا الَّذِينَ شَقَّوْا فِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا رَقِيرٌ وَسَهْيَيٌ﴾ خالدين فيها ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربكم إن ربكم فعال لما يريد) وقال في شأن أهل الجنة: ﴿وَأَنَا الَّذِينَ سَعَدُوا فِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربكم عطاء غير متجذر﴾ [مود: ١٠٨].

فهل إيراد المشيئة هنا يدل على أنهم غير مخلدين فيها؟.

أجاب ابن قتيبة رحمه الله عن هذا الإشكال على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أراد أنهم خالدون فيها مدة العالم، سوى ما شاء الله أن يزيدهم من الخلود على مدة العالم. ثم قال: ﴿عَطَاءٌ غَيْرٌ مَجْذُوذٌ﴾ [مود: ١٠٨]. أي: غير مقطوع.

الوجه الثاني: أن يكون المعنى: خالدين في الجنة وفالدين في النار دوام السماء والأرض، إلا ما شاء ربكم من تعميرهم في الدنيا قبل ذلك.

الوجه الثالث: أن يكون المعنى: خالدين في النار ما دامت السموات والأرض إلا ما شاء ربكم من إخراج المذنبين من المسلمين إلى الجنة، وفالدين في الجنة ما دامت

وعلى هذا كيف يستثنى الموت الأولى التي ذاقوها في الدنيا من الموت الذي لن يحدث لهم في الجنة؟. والجواب على هذا من وجوه:

الأول: هو من باب التعليق بالمحال، كأنه قيل: إن كانت الموت الأولى يستقيم ذوقها في المستقبل، فإنهم يذوقونها<sup>(١)</sup>.

الثاني: أن (إلا) هنا: بمعنى (لكن)، والتقدير: لا يذوقون فيها الموت، لكن الموت الأولى قد ذاقوها.

الثالث: أن الجنة حقيقتها ابتهاج النفس وفرحها بمعرفة الله تعالى وبطاعته ومحبته، وإذا كان الأمر كذلك فإن الإنسان الذي فاز بهذه السعادة فهو في الدنيا في الجنة وفي الآخرة أيضاً في الجنة، وإذا كان الأمر كذلك فقد وقعت الموت الأولى، حين كان الإنسان في الجنة الحقيقة التي هي جنة المعرفة بالله والمحبة.

الرابع: أن من جرب شيئاً ووقف عليه صح أن يقال: إنه ذاقه، فيكون المعنى هنا: إلا الذوق الحاصل بسبب تذكر الموت الأولى<sup>(٢)</sup>.

(١) الكشاف، الزمخشري ٤/٢٨٣.

(٢) انظر: مفاتيح الغيب، الرازبي ٢٧/٦٦٦.

السموات والأرض، إلا ما شاء ربك من إدخال المذنبين النار مدة من المدد، ثم يصيرون إلى الجنة<sup>(١)</sup>.

### م الموضوعات ذات صلة:

الإهلاك، البعث، الحذر، الحياة، الخلق، الخوف، القبر، القتل، الملائكة، اليوم الآخر

(١) تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة ص ٥٣.